الدراسات الثقافيّة ومفهوم المظلّة
قراءة في كتاب الدراسات الثقافية؛ مدخل تطبيقي

Cultural Satudies and The Umbrella Term

د. طارق بوحالة [1] / المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة الجزائر t.bouhala@centre-univ-mila.dz

د. هاجر بكاكرية [2] / المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة الجزائر-h.bekakria@ centre-univ-mila.dz

تاريخ الاستلام: 15/ 02 / 2021 تاريخ القبول: 05/15 / 2021 تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

ملخص

يتمحور موضوع هذه الورقة حول كتاب الدراسات الثقافية "مدخل تطبيقي" للناقد الأمريكي المعاصر مايكل .ج. رايان، الصادر عام 2010، والذي نقله إلى العربية المترجم العراقي "خالد سهر" عام 2016. حيث إننا سنحاول أن نناقش في هذه الورقة جملة من المفاهيم الواردة فيه وأهمها: صناعة الثقافة والثقافة الفرعيّة، والبلاغة والإثنية والهويّة وعلاقاتها بمظلّة الدراسات الثقافيّة.

الكلمات المفتاحية: الدراسات الثقافيّة، الثقافة، الثقافة الفرعيّة، الهويّة، الإثنيّة.

***Abstract*:**

The subject of this paper ris the book of American critic Michael.J. Rayan entitled "Cultural Studis ,A practical Introduction"(2010) translated into Arabic by the iraqi tanslator "Khaled Sahr "In this paper, we discuss a number of Rayans conepts, the most important of which are culture, subculture, identity , etnicity, etc. and its relation with the field of cultural studies. Keywords: Cultural studies, Culture, Subculture, Identity , etnicity

[1] **المؤلف المرسل:** طارق بوحالة ، **الإيميل:** t.bouhala@centre-univ-mila.dz

مقدمة :

منذ أن عرف السيّاق الغربيّ منجز الدراسات الثقافيّة في ستينيّات القرن الماضي، لا سيما بعد تأسيس مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة ببريطانيا عام 1964، والكتابات تتوال في هذا المجال، مخلفة عددا هائلا من الدراسات النقدية التي تحاول شرح أو مراجعة أو نقد هذا المنجز المعرفي.

وفي السنوات الأخيرة بدأت الدراسات العربيّة تنفتح تدريجيّا على الدراسات الثقافية الغربية، غير إنّ هذا الانفتاح كثيرا ما يركّز أصحابه على كلاسيكيات الدراسات الثقافية؛ بمعنى أنه شاع الاهتمام بكتابات "ريموند ويليامز" و"ريتشارد هوغارت" و"ستوارت هول"، وإي.بي. طومسون وغيرهم من رواد هذا التوجه الذين لم نعرف لهم ترجمات كاملة لأعمالهم، وإنما تظهر آراءهم متفرقة بين طيّات الكتابات العربية، حيث هدفها الأساسي هو تدعيم بعض الأفكار.

وقد بدأنا في السنوات الأخيرة نعرف ترجمات كاملة ومتنوعة في مجال الدراسات الثقافيّة، موزعة بين دراسات نظريّة وأخرى تطبيقية، ويمكن أن نستحضر العناوين الآتية:

1- كتاب زيودن ساردار وبورين فون لون: الدراسات الثقافيّة، ترجمة وفاء عبد القادر وإمام عبد الفتاح إمام، طبعة 2002، وهو كتاب مزود بالرسومات يشرح مفاهيم أساسيّة في الدراسات الثقافية.

2-أرثر أيزابرغر: النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، 2002، ترجمة وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي.

3- كتاب سايمون ديورنغ الدراسات الثقافيّة، مقدمة نقدية، 2015، ترجمة ممدوح يوسف عمران، وهي مراجعة نقديّة لمباحث ومقولات الدراسات الثقافية وتحديدا في الولايات المتحدة الأمريكيّة.

4-كتاب "مايكل رايان" (Maykel Rayan) الدراسات الثقافيّة، مدخل تطبيقي الصادر عام 2016، وقام بترجمته الباحث العراقي: "خالد سهر" وهو العمل النقدي الذي سنناقشه في هذه الدراسة.

5- "كريس باركر" معجم الدراسات الثقافية، ترجمة الباحث الجزائري جمال بلقاسم، 2018. زهز معجم قّم حيث يعرض كثيرا من المفاهيم، ويربطها بمجال الدراسات الثقافيّة.

وقد اخترنا كتاب الناقد الأمريكي "مايكل رايان" الدراسات الثقافيّة "مدخل تطبيقي" لمحاورته نقديّا ومنهجيّا لاعتبار أساسي وهو أن الكتاب من الدراسات القليلة التي تجاوزت التأسيس النظريّ لهذا الحقل المعرفي، وهو ما لم تحدّ عنه الدراسات العربيّة، ومنه تكمن أهميّة نقل الكتاب إلى السيّاق العربيّ. ويتضمن أربعة عشر فصلا جاءت على التوالي:

1- السياسة والصناعة.

2- المكان والفضاء والجغرافيا.

3- الجندر والجنسانيّة.

4- الإيديولوجيّات.

5- البلاغة

6- الإثنيّة.

7-الهويّة وأسلوب الحياة والثقافة الفرعيّة.

8- ثقافة المستهلك ودراسة الأزياء.

9-الموسيقى.

10- دراسات وسائل الإعلام.

11- الثقافة البصريّة.

12- الجمهور والأداء والنجوميّة.

13- الأجساد والأشيّاء.

14- عبر القوميّة والعولمة وما بعد الكولونياليّة.

يعرض المترجم العراقي "خالد سهر" مقدمة مستفيضة يناقش فيها واقع النقد الثقافي في الخطاب العربي، قائلا بوجود فوضى اصطلاحيّة ومنهجية عند كثير من الدارسين العرب. وهو ما نتفق معه، حيث إن الوعيّ النقدي العربي لم يضع بعدُ حدودا ابسمتولوجيّة تضبط معالم النقد الثقافي ومعالم الدراسات الثقافية؛ فمن الإشكالات العويصة في هذا السياق؛ أنّ الوعي العربيّ قد عرف أولا النقد الثقافي، ثم اكتشف الدراسات الثقافية، فاعتقد أنهما شيئا واحدا، عكس المنجز الغربي الذي اشتغل على الدراسات الثقافية في الستينيات من القرن الماضي ثم النقد الثقافي في التسعينيات من القرن نفسه.

1- الدراسات الثقافيّة:

تحاول الدراسات الثقافيّة مسائلة الممارسات الخطابيّة المختلفة التي تتضمن مجموعة المواطن التي تحيل على تجاذبات القوة والمعرفة، حيث إن الأدب خطاب دالّ يختزن أنساقا وتمثيلات ثقافيّة ورمزيّة، من جهة أخرى فإنّ الدراسات الثقافيّة لا تعقد تفاضلا بين الخطابيّن النخبوي والهامشي.

و"عندما تطلق عبارة الدراسات فإنّها تعني حقلا تتداخل فيه جملة من المعارف التي تشمل عددا كبيرا من المبادرات النقديّة في بريطانيّا وأمريكا على حدّ السواء، ويمكن الوقوف على السوابق في هذا السياق بالرجوع إلى الأعمال التي نشرها النقاد اليساريون في الخمسينات والستينات الأولى، كالعمل الذي قدمه "ريتشارد هوجارت" بعنوان " فوائد معرفة القراءة والكتابة"، والعمل الذي قدمه ريموند ويليامز بعنوان الثقافة والمجتمع"[2]

وتتصف الدراسات الثقافية بالاتساع والشمولية، مما سهل لها الانفتاح على معارف وعلوم إنسانيّة واجتماعيّة مجاورة محاولا أن يستغل المقولات الموجودة فيها لصالحه، كأن يتقاطع مع علم الاجتماع والنقد الأدبي وعلم العلامات في شقه الثقافي وعلم النفس والدراسات الإعلاميّة والميديّا بأشكالها المختلفة. ففي أحد المجلدات الصادرة عام1998، من الدورية الرائدة "دراسات ثقافية" Studies Cultural يمكن أن يجدّ المرء مقالا نقديّا أدبيا تقليديّا حول هاملت وماركس، ومقالة اجتماعية حول الاستهلاكية واللوفر، وقطعة تعتمد على الأرشيف حول العلم الاستعماري في جنوب الهند، ونقدا نسويّا حول نظريّة الهجنة الثقافيّة، ومقالة حول "فوماتشو" البطل الصيني الشرير في عدد من الروايات الشعبيّة للكاتب "ساكس روميز" في بداية القرن العشرين تضعه في سياقه التاريخي."[3]

وقد واجهت الدراسات الثقافيّة تهمة الابتعاد عن التخصص الأكاديمي، وبالتالي استشرف بعض نقادها حتميّة وصولها إلى طريق مسدود، ولكن من جهة ثانيّة فأن هذه الصفة تمنح مرونة للقراءة الثقافيّة وانفتاحا على مجالات معرفية مجاورة، ليبعدها ذلك عن الحَرفيّة النقدية والصرامة المنهجيّة. وهنا نستحضر مفهوم "المظلة" "Umbrella term"ومفهوم الدراسات البيّنيّة.

ويحددُ "مايكل رايان" هذه خاصية انفتاح الدراسات الثقافية على المعارف في دراسته لريموند ويليامز ومركز برمنجهام ثلاث لحظات رئيسية في التحول المطرد للدراسات الأدبية إلى الدراسات الثقافية وهي:

1- في البداية اجتمع أثر النقد النسوي والعرقي واليساري ليفرض الاعتراف بأن النصوص الأدبية هي بالأساس وثائق وأحداث اجتماعية تحيل إلى موضوعات اجتماعية تاريخية،

2-ثم أظهرت ثانيًا مشروعات البنيوية والسميوطيقا أن النصوص شكلها الشفرات والتقاليد والتصورات الاجتماعية مما قضى على فكرة الاستقلال الأدبي،

3-وجاء ثالثا علو أهميّة الإعلام الجماهيري والثقافة الشعبية على مركزية الكلاسيكيات الأدبية ليعبر النقاد على الاعتراف بالأدوار التكوينية والتعليمية الحاسمة لأنواع الخطاب الجديدة...[4]

2- مفهوم الثقافة وأنماطها عند مايّكل رايان:

يخضع مفهوم الثقافة في مسيرة تطوره إلى الكثير من التحديدات، فمنذ كتاب"ماثيو أرنولد" "الثقافة والفوضى" عام 1864، ومرروا بمفهوم الثقافة عند ادوارد تايلور عام 1871 في كتابه الثقافة البدائية، ووصولا إلى المدارس المختلفة بين تاريخية تطورية وبنيوية وصفية وتأويليّة رمزية، ومفهوم الثقافة يعرف تطورا وتغيرا يوما بعد يوم.

يركز مايكل رايان في تحديده لمفهوم الثقافة على شكله الإجرائي، حيث يقوم بشرح موقفه في قوله: "للثقافة معاني متعددة، واحد من معانيها أنها غيّر منفصلة عن الحياة الإنسانيّة، فكلّ شيء من ملبسنا وطعامنا وكلامنا وتفكيرنا هو ثقافة، وأنك تلاحظ ذلك واقعيّا حينما تغير مكانك وتدخل في ثقافة أخرى، حاول أن تعبّر حدودا، أيّ حدود وسوف تشعر بذلك."5

تشمل الثقافة جوانب عديدة من الحياة من ملبس ومشرب ونمط عيش وطريقة تفكير، وهي تختلف من مكان إلى آخر، ويمكن استحضار مفهوم الثقافة عند ريموند ويليامز الذي لخصها في كونها نمط أو "منهج في الحياة يخترق الممارسات الإنسانية والعلاقات الاجتماعية جميعها... 6، كما يلاحظ أيضا يوري لوتمان أن ما هو يعدّ ثقافة عند جماعة يعدّ "لا ثقافة" عند جماعة أخرى، "فكل ثقافة تبدأ بتقسيم العالم إلى الفضاء الداخلي الخاص (بي)، إلى فضا"ئهم" الخارجي"[6]

ويعرض مايكل رايان مفهوم الثقافة الشامل في قوله: " المعنى الأكثر مألوفيّة لمفردة الثقافة هو الأشيّاء التي نصنعها نحن البشر حينما نترجم الأفكار إلى أشياء، فإذا كان المعنى الأول لمفردة الثقافة يضم السلوكيّات والمؤسسات، وأشياء مثل المعايير التي على وفقها نعيش، والممارسات التي ننشغل بها (كل شيء من اللباس إلى الاستحمام)، والمؤسسات التي نقطن فيها ونستعملها كالمحاكم والأسواق وأماكن العمل، فإن المعنى الثاني للثقافة يضم المصنوعات الثقافية كأشياء مثل الشكل التي نضفيه على البيئة المبنيّة (معيار البنيات على سبيل المثال) وأشكال الترفيه التي نخلقها (مثل أفلام هوليود وبوليود) والموسيقى التي نستمع إليها سواء أكانت (تكنو أو راب) وهذه القائمة لا يمكنها استقصاء الابتكار البشري، أو الطرائق المتعددة التي بها يصنع البشر المؤسسات والفعاليات والأشياء المفبركة، والمصطنعة، والفنيّة ويطورونها، والتي تعد ثقافة بالمعنى الثاني للكلمة."[7]

وللثقافة حسب رايان وجها ماديا يرتبط بسلوكياتنا ولباسنا وطريقة عيشنا داخل المجتمع، ووجها فكريا ورمزيا يرتبط بما يخضعه الفرد للصناعة الثقافية (ليس المفهوم هنا ما شاع عند رواد مدرسة فرانكفورت النقدية)، وينسحب المعنى الثاني للثقافة على مظاهر مختلفة مرئية أو موسيقية أو سينمائية أو دعائية، وهو ما لا يستقيم دون وجود الوجه الأول للثقافة، وليصف مايكل رايان هذه العلاقة الضرورية بقوله: " فقدرة أحدهم على كتابة الروايات تعتمد على قدرته على الحصول على الورق ليكتب عليه... وإذا كان المرء بصدد صنع تسجيلات موسيقية ناجحة، عليه ألا يكتفي بالموهبة، بل عليه فضلا عن ذلك أن يحضّ بشركة إنتاج موسيقيّة لديها رأس المال لكي تجعل موسيقاه ضمن التسجيلات القابلة للتسويق، وعلى المرء إذا انهمك بنشاط ثقافي يتعلق بصنع برامج تلفزيونية أو أفلام أن يعمل مع كيانات اقتصادية كثيرة تملك الوسائل لإنتاج أفكاره وابتكاراته وتسويقها."[8]

ترتبط هذه الرؤية بالراهن وتشابكاته المعقدة، وهي تحاول الابتعاد قدر الإمكان عن المعنى الأنتربولوجي البسيط للثقافة وأيضا المفهوم السوسيولوجي السائد في كثير من المدارس. فالثقافة عند رايان ترتبط بوجود علاقات منجزة بين السلوكات المادية وبين الأبعاد الرمزية وبين مجال الصناعة الثقافية، وهو ما تروج له المؤسسات المختلفة التي تشرف على تسويق المنتوجات الثقافية على غرار مؤسسة التلفزيون والميديا.

ويأتي الحدث أيضا عن الثقافة الفرعيّة (Subculture)، التي تسمى كذلك بالثقافة الهامشيّة، والثقافة الدنيا، والثقافة المقاومة وغيرها...، "وتفيد البادئة (sub) معنى فرعيّ وهي تشير إلى مفاهيم كالاختلاف أو التمايز عن المجتمع السائد أو المهمين...كما تحي لمعاني التابع والسفلي، ومن ثمّ فالثقافة الفرعيّة تعد كفضاءات لثقافات منحرفة تفاوض أو تحوز فضاءات لها"[9]

ويشتغل مايكل ريان على تبيين علاقة الثقافات الفرعية المنتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية وعلاقتها بالثقافة الرسمية مستحضرا الثقافة الشبابية...بوصفها جماعة ثقافية أثارت الاهتمام بالفرق بين ثقافات الاتجاه السائد أو المهيمنة والثقافات الفرعية... [10]

3- مظلّة الدراسات الثقافيّة:

أ- صناعة الثقافة:

تغطي الدراسات الثقافيّة عند مايكل رايان موضوعات عديدة، وهو يستهلها بمجال السياسة والصناعة الثقافيّة، مركزا على العلاقة الوثيقة بين صناعة الثقافة والتزامها السياسيّ في المؤسسات المشرفة على هذه العملية.

ويرتبط مفهوم "صناعة الثقافة" بالمفكرين الألمانيين الذين ينتميان إلى مدرسة فرانكفورت "ماكس هوركهايمر" و"تيودور أدورنو" في كتابهما المشترك: "جدل التنوير" (1947)، حيث استبدالا مفهوم الثقافة الجماهيرية "Mass Culturr " بمفهوم صناعة الثقافةCulture Industry ، لأن الأول يعطي انطباعا ذو تجذّر تلقائي في الجماهير، لكن مفهوم صناعة الثقافة كما يوضح أدورنو لا يعني إنتاج الثقافة نفسها، وإنما الشكل والمضمون اللذان يميزان الثقافة المنتجة إنتاجا جماهيريّا ومعياريّا."11

يستعين مايكل رايان من أجل مناقشة هذه العلاقة الموجودة بين السياسة وصناعة الثقافة بخبرته الأكاديمية في مجال السينما وذلك من خلال تقديم قراءات نقدية لأفلام عالميّة، مبرزا الطرق والأساليب التي تتدخل عن طريقها مؤسسات السلطة السياسية في تشكيل هذه الخطابات السنيمائية، أي كيف للأفلام السينمائية من أن مظهرا من مظاهر الصناعة الثقافية، حيث يعقد الناقد مقارنة مقتضبة بين صناعة الأفلام في الولايات المتحدة الأمريكية وصناعتها في أوربا، ممثلة في السينما الفرنسية. فهو يرى أن" الثقافة (كانت) على الدوام مزيجا من الفعل المادي والواقعة الفكريّة، إنها تركيبة بين مفهوم الموهبة وميكانيزم الإنتاج."[12]

وتخضع صناعة الثقافة -في شكل صناعة الأفلام السينمائية- إلى محددين: المحدد الأول مرتبط بالربح وهو الأهم على مستوى صناعة الثروة، والمحدد الثاني وهو الخفيّ والأكثر خطورة، المرتبط بصناعة الجماهير وخلق طرق للهيمنة عليهم بواسطة نمط الإنتاج الفلمي، ويتأكد ذلك عبر مؤسسات الإنتاج والتوزيع العالميّة التي أصبحت تمثل قوى رمزيّة وماديّة تستعمل للتحكم في أذواق العامة والحشود الجماهيرية وتسيرها حسب إيديولوجية خاصة ومرسومة.

وقد سلكت هذه المؤسسات في تطورها محطات عديدة تخضع -في كل مرة- إلى متغيرات تفرزها الإيديولوجيات الجديدة، وهو ما يركز عليه ريان في شرحه لمحطات صناعة السينما في و.م.أ، وهو يعتقد أنه في "عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة مثلا كانت الأفلام القادمة من أوربا وأسيا وأماكن أخرى تصنع بميزانيات صغيرة، وغالبا بممثلين غير مدربين، ومع ذلك فإنها مشهورة عند الجمهور المثقف لأنها تستكشف قضايا تخلى عنها الاتجاه العام لأفلام هوليوود في ذلك الوقت، وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه أفلام الخمسينيات الأمريكية تصور ضواحي البيض بوصفها عالما من الصراعات العاطفية يسيرة الحل."[13]

لم تعد مؤسسة هوليوود تصنع أفلاما تراعي فيها رغبات الجمهور خاصة المثقف منه، مما جعله يوجه اهتمامه إلى ما تقدمه الأفلام من خارج الولايات المتحدة الأمريكية من أسيا وأوربا وغيرها، كونه وجد فيها أكثر تعبير عن قضايا جوهريّة تخلى عنها الإنتاج السينمائي في و.م.أ، ويبين أن هذه الأفلام القادمة من خارجها لم تصرف عليها أموال طائلة ولم يمثلها ممثلون مشهورين.

ليكون ذلك سببا أساسيا في دفع الجمهور إلى العزوف عن السينما والأفلام المعروضة في هوليوود رغم ضخامة ما يصرف في سبيلها، محتكما في ذلك إلى مبدأ القيمة للأفلام المعروضة، حيث وجد في أفلام أخرى موضوعات تتماشى مع وعيّه المتشكل ثقافيّا.

ب-الجندر والجنسانيّة:

يندرج مبحث "الجندر" (Gender) أوالجنسانية أوالجنوسة تحت المظلة الواسعة للدراسات الثقافية، وفيه يبحث الدارسون عن تمثيلات الجندر داخل الخطابات الثقافيّة والأدبيّة، منها الروايات والأفلام والمسلسلات والأغاني... وغيرها.

ويشير مفهوم الجندر إلى "المسلمات والممارسات الثقافية التي تحكم البناء الاجتماعي للرجل والمرأة وعلاقتهما الاجتماعية، ويستمد المفهوم كثيرا من قوته من خلال تعارضه مع مفهوم الجنس الذي يعدّ تكوينا بيولوجيا للجسد والأنوثة والذكورة كشكل من أشكال الجندر يعدان تنظيما ثقافيا للسلوكات التي ينظر إليها على أنها حالات مناسبة اجتماعيا لجنس معين."[14]

يكون ذلك مساحة خصبة تنشأ من خلالها الصراعات الجندريّة والثقافيّة، فلم يعد النوع الجنسيّ مجرد نوع طبيعيّ بل هو موقع ثقافيّ بامتياز. ويقدم مايكل ريان تعريفا مركزا للجندر بقوله: "الجندر خليط من الطبيعة والثقافة، من البايولوجيا والسلوك المكتسب"[15]

يرى الباحث أن الجندر *أحد* الموضوعات الشائكة *والمثيرة* في السياق الغربيّ والأمريكيّ بشكل خاص، *وبهدف تبين ذلك يصرح قائلا*: "في دراستنا لثقافة الجندر والجنسانيّة نكشف عالما من المشاعر المزعجة أحيانا، والخطيرة في مناسبات أخرى، إنه عالم القوة أيضا، حيث تُطوَّع فئات أخرى على امتداد خطوط الجندر، وبلغة الولوج إلى منبع الجنسانية. ولكن الجندر والجنسانية ظلاّ كذلك مناطق للإبداع واللعب البشريين الهائلين دائما، حيث الدافع الطبيعي لإعادة إنتاج الإنسانيّة والإلحاح تجاه المتعة من خلال الآخرين."[16]

ويثير البحث في *موضوع* الجندر م*ساحات مزعجة تتعلق بقضايا شائكة* ترتبط *بمدى تعالقها مع* عالم يزخر بتجذبات *بين* القوة والهيمنة الجنوسية التي تستحيل إلى هيمنة ثقافية ورمزية، كما إن الجندر *من جهة أخرى هو عبارة عن* مساحة *خصبة لممارسة* لإبداع الإنساني، وذلك *بواسطة* إعادة إنتاج أنماطا ثقافيّة مختلفة عما يشاع داخل السلوكات اليومية.

ج-الإثنية:

وتستعمل كلمة الإثنية " للإشارة إلى الجماعات العرقيّة أو القوميّة المختلفة التي تتحدد وفقا لما يشترك فيه أفراد كل جماعة من ممارسات ومعايير، وأنساق من المعتقدات، وعندما توصف جماعات ما بأنها جماعات إثنية، فإن هذا يعني ضمنا - في العادة- وصف هذه الجماعات باعتبارها من الأقليات، وأن لديها طائفة أو مجالا مختلفا من الاتجاهات أو عناصر التراث التي تختلف عما تؤمن وتتمسك به غالبية أعضاء المجتمع، ويشير مصطلح الإثنية - بدوره- إلى ما لدى جماعة معينة من وعي ذاتي بما يخصها وحدها من مظاهر التميز الثقافية."[17]

تعد الإثنية معطى بيولوجيا وثقافيا، وهي في الوقت نفسه عنصرا تمييزيا، تلجأ إليه الجماعات المختلفة عرقيّا وثقافيّا بهدف الاحتماء به، وهي "أيضا واحدة من اللغات التي يفكر بها العالم، الإثنية خليط من الحقيقة والتمثيل غير الدقيق، أو غير المتكامل."[18]

ويبدو أن الإثنيات / العرقيّات قد صارت تستعين في صراعاتها المختلفة على آلية التمثيل « Représentation »، فهي توظف جملة من الخطابات من أجل إعادة تشكيل صور وتمثيلات عن بعضها البعض بطريقة مفارقة في كثير من الأحيان للحقيقة والواقع. ويربط الباحث بين التمثيل وبين الحقيقة، إذ لا يمكن أن يتشكل التمثيل من الحقيقة فقط؛ بل يرتكن إلى المتخيّل، مما يضفي على الخطاب المتشكل خصوصيّة تختلف عن مرجعه الحقيقي، ومنه تعد الإثنية خليطا بين طرفي التمثيل والحقيقة.

يقول مايكل ريان أن " الخطر الذي تطرحه الثقافة في قضية الإثنية هو أن التمثيلات الثقافية توجد على شكل طيف من الموضوعي والواقعي من جهة، إلى الخيالي والحدسي من الجهة الأخرى، فنحن نخلق القصص بالتمثيل الثقافي، ولكن نستعمل الأدوات نفسها لقول الحقائق حول العالم...وإن الخطر في مثل هذه التمثيلات يكمن في كونها خيالا أكثر منه واقعا."[19]

يعاد صياغة الجماعات الإثنية والعرقيّة في كثير من الأماكن في العالم بواسطة أنماط خطابيّة تستند إلى عناصر سردية تنتج عادة في مناطق القوة، حيث يندمج التنميط وكثير من المتخيل، ما يبعدها عن الواقع والحقيقة.

ويقدم مايكل رايان مثالا على ذلك في قوله: "في الولايات المتحدة على سبيل المثال، عانى الأمريكيون الأسيويّون من تغير بارز في الوضع التمثيلي، فقد صُوّروا في الماضي، غالبا في المخيّلة الشعبيّة على أنهم مدمنو الأفيون، وهو الخطر الأصفر."[20]

د- خطاب الأغنيّة الموسيقى:

يعود "مايكل ريان" إلى خطاب الأغنيّة والموسيقى العالميّة محاولا تبين مواطن التمثيلات الثقافية التي تحيل على العرقية ومن ذلك يختار نماذج من البوب الأوربي والروك الجامايكي، وفرق موسيقية عالمية من البرازيل وإفريقيا...

يقول مايكل رايان: "إذا كان لنا أن نستوعب قيم ثقافة ما ومخاوفها ورغباتها، فعلينا أن نفهم الممارسات التي تحيط بإنتاج موسيقاها واستهلاكها، ولقد ساد الاعتقاد طويلا بأن العلماء مهتمون فقط بالأحداث التاريخية المهمّة كالحروب وانهيارات أسواق المال والانتخابات، ومع ذلك فإن الحركات الاجتماعية العظمى لا تقع في فضاء معزول عن الحياة الفنية والثقافية التي تتضمن التسليّات الشعبية كالموسيقى."[21]

تلعب الموسيقى والأغنية دورا فعالا عند الكثير من المجتمعات، خاصة لدى الفئات الهامشيّة التي تتوسل بهما من أجل مقاومة الثقافة الرسمية ووسائلها المختلفة التي تسعى من خلالها إلى إخضاع هذه الفئات، ضمن مشروع النخبة الحارسة للذوق العام. وتأكيدا لهذه الرؤية يمكننا أن نستحضر موقف أنطونيو غرامشي الذي "ينص فيه على وجود نضال مستمر من قبل الطبقات الحاكمة من أجل الهارموني، وكفاحها للفوز بالسلطة الاجتماعية الكلية على الجماعات الخاضعة."[22]

هـ- الدراسات الثقافيّة والدراسات البلاغيّة:

يقول مايكل رايان: "أخذ التداخل بين انشغالات الدراسات البلاغيّة والدراسات الثقافية يزداد، طالما بوصفها تخصصات أكاديمية في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، صارت تنعطف باهتمامها تجاه الخطاب العام وتتبنى ما يشار إليه غالبا بالمنعطف التأويلي وهو الوعي بأن المعتقدات والممارسات التي تبني أيّ شكل للنشاط الإنساني تتشكل اجتماعيا وتخدم حتما المصالح السياسية لفئة دون الأخرى، فكلتاهما الدراسات الثقافية والدراسات البلاغية تستثمر في قضايا السلطة والأداء والخطاب الشعبي والنصية والتأويل، ومنشغلة بالطرائق التي بها يكافح الناس باتجاه القوة ضمن البنى الاقتصادية والسياسية مستعملين الموارد الرمزية مثل اللغة اليومية والتعبير الفني."[23]

تتعامل الدراسات الثقافيّة مع البلاغة بعيدا عن المفهوم المدرسي الذي كان سائدا في الدرس البلاغي منذ عصر اليونان، خاصة مع شيوع مجال تحليل الخطاب الذي تجاوز الاهتمام بالجملة والتركيب، وهو ما حاول مايكل رايان استثماره في حديثه عن العلاقة بين مجالي الدراسات الثقافي والدراسات البلاغيّة.

ويرى أنه: "في الوقت الذي كانت تعدّ فيه البلاغة عنصرا مهما وحيويّا في تنميّة المجتمعات البشريّة والحفاظ عليها في العالم القديم، فإن مركزيّتها في دراسة الثقافة المعاصرة لم تؤسس إلا مؤخرا نوعا ما، فمنذ

عشرينيّات القرن الماضي وحتى ستينياته كانت الدراسات البلاغيّة تفهم أساسا على أنها تخصص مرتبط بتعليم الخطابة العامة، ويميل التركيز فيها إلى تحليل الخطب بمعزل عن سياقاتها الثقافيّة والتاريخيّة. تغير هذا في سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته، وكان سَببُ ذلك في الأغلب ظهور التلفيزيون بوصفه الوسيلة التي مثلت المهمّش والمقموع"[24]

و- ثقافة الأجساد:

يخصص مايكل رايان حديثا مستفيضا لعلاقة الجسد بالثقافة، وعلاقته بنشاط الدراسات الثقافية، حيث لم يعد الجسد مجردّ هيئة بيولوجيّة فقط، بل إن له علاقة وطيدة بالتكوين الثقافي، فالفرد يسعى داخل الحياة الاجتماعيّة والثقافية إلى تطويع جسده لصالح الثقافة التي تسكنه، وتتحكم في تصرفاته وسلوكه اليومي. وعلى رأي مايكل رايان "نحن نسكن الأجساد، بوصف ذلك جزءا من وجودنا الثقافي ونتفاعل مع الأشيّاء في العالم من حولنا بطرائق ذات معنى، فكيفيّة تحريكنا لأجسادنا في الفضاء تعبر عن هويتنا وعن إحساسنا بكينونتنا."26

كما يجترح مايكل ريان مصطلح الدراسات الثقافية الجسديّة التي تعتني بالحياة الجسديّة بكل شيء من هيئة الجسد ودلالته إلى الرقص ومعانيه المختلفة في السياقات المختلفة..[27]

ه-ثقافة الأشياء:

تحتل الأشياء الماديّة التي تأثث حياتنا مكانة مهمة لأنها ليست أشياء مادية مفرغة من دلالتها، بل إنّ لها علاقة وطيدة بالثقافة التي تعيش فيها.

وفي هذا الصدد يتساءل الناقد الفرنسيّ رولان بارت عن دلالة الشيء قائلا: "متى تبدأ دلالة الشيء؟"27 ويجيب: "أميل إلى الإجابة بأنّها تتم بمجرد ما يُنتَج الشيء، ويأخذ المجتمع البشري باستهلاكه؛ أيّ بمجرد ما يصنع ويقنن."[29]

أما ريان فهو يرى أننا "نعيش، أيضا، في تفاعل مستمر مع عام من الأشياء من حولنا، فحياتنا يعضّدها كل شيء من مواقيد التحميص إلى السيارات. ويضعنا التواصل مع الأشياء في أنماط معيّنة من العلاقات الاجتماعية ويمنحنا قدرة الولوج إلى أشكال معينة من المعنى الثقافي."[30]

لا تتموضع الأشياء التي تحيط بنا والتي نستعملها في حياتنا اليومية خارج الحياة الثقافية، حيث إن الكثير منها نشحنها رمزيّا، ليتحول إلى دلالة سميائية، ومعطى ثقافيّ. كما إن هذه الفكرة تخضع إلى مفهوم الثقافة باعتبارها نمط عام للحياة.

خاتمة:

يبقى كتاب الدراسات الثقافيّة للناقد الأمريكي مايكل رايان مجالا تطبيقيا حاول من خلاله الابتعاد عن التعقيدات النظريّة وكثرة الشروح والمراجعات لنشاط الدراسات الثقافية، مركزا على الممارسة الإجرائيّة ومقاربة خطابات عديدة، والكشف ما تضمره من أنساق وتمثيلات رمزية وثقافية. ولقد استثمر مايكل ريان مجموعة من المعارف والخطابات الثقافية والأدبيّة المختلفة وجعلها مجالا تطبيقيّا يكشف من خلاله المواطن التي تبحث عنها الدراسات الثقافية في مثل هذه الخطابات. كما يحسب للمترجم العراقي خالد سهر حسن

اختياره لهذا الكتاب وترجمته ترجمة جيّدة، مع حرصه الشديد على تقديم هوامش توضحيّة تشرح الكثير من القضايا التي قد تستغلق على القارئ.

الإحالات والهوامش

1-ينظر: مقدمة المترجم، مايكل رايان: الدراسات الثقافية، مدخل تطبيقي، ترجمة خالد سهر، دار بغداد للنشر، بغداد، ط1، 2016، ص 11

2-عز الدين إسماعيل: آفاق معرفيّة، النادي الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربيّة السعودية، ط1، 2008، ص ص 122، 123.

3 - سايمون دورينغ: الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، ترجمة، ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ط/2015، ص 22.

4 - ينظر: فنست ليتش: النقد الأدبي الأمريكي، ترجمة، محمد يحيى، المجلس الأعلى للترجمة، القاهرة، ص411

5- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 27

6 - ينظر فيصل دراج: أشكال المثقف وإشكالية الثقافة، دار أزمنة، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص33

7 - يوري لوتمان: سمياء الكون، ترجمة عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص 35.

8- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، مدخل تطبيقي، ص29.

9 - كريس باركر: معجم الدراسات الثقافيّة، ترجمة جمال بلقاسم، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2018، ص 151.

10 - مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 189.

11 - المصدر نفسه، ص 30.

12 -علي ناصر كنانة: إنتاج وإعادة إنتاج الوعي، منشورات الجمل، بغداد، كولونيا، ط1، 2009، ص 27.

13- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 37.

14 - المصدر نفسه، ص 38.

15-كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2018، 166.

16- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 79.

17 – المصدر نفسه، ص 84

18 - أندرو إدجار وبيتر سيدجويك: موسوعة النظرية الثقافية، ترجمة، هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2014، ص38

19- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 162.

20- المصدر نفسه، ص 162

21- نفسه، ص 163.

22- نفسه، ص228

23 - تيم إدواردز: النظرية الثقافية: ترجمة، محمود أحمد عبد الله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط/2012، ص416.

24- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 142.

25 - المصدر نفسه، ص ص 136، 137.

26 - نفسه، ص 327.

27- نفسه، ص 329.

28- رولان بارت: المغامرة السميولوجية، ترجمة عبد الرحيم زحل، دار تينمل للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 1993، ص40

29 - المرجع نفسه، ص40

30- مايكل رايان: الدراسات الثقافية، ص 333.

قائمة المصادر والمراجع

1-أندرو إدجار وبيتر سيدجويك: موسوعة النظرية الثقافية، ترجمة، هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2014.

2-تيم إدواردز: النظرية الثقافية: ترجمة، محمود أحمد عبد الله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط/2012.

3-رولان بارت: المغامرة السميولوجية، ترجمة عبد الرحيم زحل، دار تينمل للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 1993، ص40

4-سايمون دورينغ: الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، ترجمة، ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ط/2015.

5-عز الدين إسماعيل: آفاق معرفيّة، النادي الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربيّة السعودية، ط1، 2008.

6-علي ناصر كنانة: إنتاج وإعادة إنتاج الوعي، منشورات الجمل، بغداد، كولونيا، ط1، 2009.

7-فنست ليتش: النقد الأدبي الأمريكي، ترجمة، محمد يحيى، المجلس الأعلى للترجمة، القاهرة.

8-فيصل دراج: أشكال المثقف وإشكالية الثقافة، دار أزمنة، عمان، الأردن، ط1، 2015.

9-كريس باركر: معجم الدراسات الثقافيّة، ترجمة جمال بلقاسم، رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2018.

10-مايكل رايان: الدراسات الثقافية، مدخل تطبيقي، ترجمة خالد سهر، دار بغداد للنشر، بغداد، ط1، 2016.

11- يوري لوتمان: سمياء الكون، ترجمة عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص 35.